الزكاة نظام اجتماعى

يحتمه الوجدان ويقره الدين

للأستاذ الشيخ مصطفى الصاوى
المدرس بالأزهر الشريف

لا بد للإنسانية فى حياتها ، من أن ترتكز على مبدأ التعاطف والتراحم . فلا يستقيم نظامها إلا حيث تكون متعاطفة متراحمة . و إلا حيث تكون متعاونة متضامنة ، فلذلك جاءت شرائع السماء داعية إليه فى حرارة وصراحة ، حاثة على تحقيقه فى إيجاب وتحتيم ، فاستنت تلك الشرعة العظيمة ، شرعة الحث على مواساة المنكوبين ، والعطف على الفقراء والمساكين . شرعة الزكاة التى جعلها الدين الاسلامى ركنا من أركانه ، ودعامة من أقوى دعائم النظام الاجتماعى ، الذى لا بد منه لاستقرار الحياة ونظامها ، فلن يتيسر للبشرية أن تقطع مراحل الحياة ، بدون ألم أو مشقة ، ومن غير أن تتحمل أوصار السير ، إلا بالتعاون والمعاضدة والتعاطف ، وأحق طريق للمعاونة وأفضل سبيل للتعاطف هو مبدأ الزكاة التى فرضها الله على عباده الموسرين لإخوانهم المعسرين .

وكان هذا التعاطف ضروريا لحياة الانسانية ، لأن الله قد خلق أفرادها متعاونين فى المواهب ، مختلفين فى المراتب ، فجعل منهم قويا وضعيفا ، وغنيا وفقيرا ، وذا موهبة وقدرة على الكد والاكتساب واجتلاب الأرزاق من شتى الطرائق ، وعاجزا عن الكسب قد حرم تلك الموهبة ، فوقف فى ميدان الحياة جامدا ، لا يستطيع الكسب ، ولا يقدر على جمع الرزق ، ذلك ليبلو الله الناس ، وليتجلى الفرق بين الكز الشحيح البخيل والسمح الندى الكريم .

ففريضة الزكاة ترجع فى الحقيقة إلى تبادل الرفق والمعونة بين الجماعة الانسانية ، مرتكزة على مبدأ التعاطف والتراحم ، قد أوجبها لتحقيق مبدأ الإيثار المحمود ، مبدأ السماحة والكرم والندى ، ولتستأصل من النفوس مبدأ من أخطر المبادئ على كيان النظام البشرى العام ، ذلكم أيها السادة هو مبدأ الأثرة الممقوت المدمر الهدام .

فالزكاة تدعو إلى اسمو الروحى ، وتحث على التحلى بالنبل والكمال ، فكما أنها تحث على الإيثار وتدعو إليه ، فهى تحارب الأثرة فى النفوس حربا ضروسا ، لتقضى عليها القضاء الأخير ، ذلك ليسلم العالم من خطر ذلك المبدأ الهدام ، الذى لو تحقق لرأيت الفوضى ماثلة فى أبشع صورها وأدق نظمها .

فلولا قانون العطف الجاذب بمغناطيسيته قلوب الموسرين بالعطف على المعسرين ، لرأيت الأثرة جاثمة على النفوس ، مسرعة الى الفوضى ، تطلقها من عقلها ، فتراها فاشية تدك

معالم النظام دكا ، ثم تزها تحل وسائل التدمير والتخريب ، مكان أسباب النظام والتعمير ، فيفسد هذا النظام الكونى الذى تراه سائدا .

فالزكاة إذن أيها السادة هى النظام، وهى العمران،وهى هناءة البشرية وأمنها وسلامتها، ثم هى بعد مطهرة الأموال ونماؤها، قال تعالى : "خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ". أرانى أيها السادة قد بالغت فى وصف الزكاة، ولكن إذ عرف أنها نظام الحياة البشرية، وأنها إسعاد لأولاد آدم ، غنيهم وفقيرهم ، وأن ليس حظ الغنى منها بأقل من حظ الفقير ، عرف أنى لست مبالغا ، وأنها مبدأ جدير بالعناية ، حقيق أن يعده الاسلام ركنا من أركانه .

فالزكاة ضمان للإنسانية مجتمعة ، ولأفرادها كلهم على السواء ، من حيث إن ظروف الحياة قلب ، وأحوالها متغيرة ، لا دوام لها ولا استقرار لشؤونها ، فالغنى اليوم لا يضمن فى الغد بقاء غناه، والقوى الآن لا يملك استمرار قوته، والعزيز الساعة، لا يهيمن على تصرف القــدر المستور المغيب بعد ، فيطمئن الى دوام عزه ، و بقــاء سطوته ، وآيات التصرف فى الكون نواطق بهذا شواهد عليه .

واذا كانت أحداث الزمان ومفاجئات الأقدار تنتاب الانسانية كل وقت على حين غفلة منها كما ذكرنا ، فلا بد لها من حصن تحصن به وملاذ يؤويها ، وملجأ تفزع اليه اذا مستها الضراء وعركتها الأيام وطحنتها رحى القدر ثم قذفت بها فى أحضان البأساء والضراء.

فاين ذلك الحصن أيها المستمعون الكرام. ثم أين ذلك الملجأ والملاذ اذا لم يكن فى شرعة الزكاة وكنفها الحريز ملجأ حصين من نوائب الدهر وحوادث الأيام .

أيها السادة :

قد يقول قائل مالنا نرجع الى التشريعات القديمة التى لا تلائم العصر الحاضر ولا تساوق المدنية الحديثة ، فى حين أن العلم والفكر قد قدما للبشرية من الأوضاع ما يكفل سعادتها واستمرار هناءتها ، فهاهى الدول الغربية قد نظمت الاحسان فأنشئت الملاجئ والمصانع والمصحات والمدارس .

ولكني أقول : هذا صحيح ولكنه لم يف بالغرض المطلوب فلا تزال البشرية مع هــذا التنظيم تعانى البأساء والفقر وما هذا الإحسان المنظم فى شتى صوره إلا نوعا من العطف الذى احتوى كل أنواعه مبدأ الزكاة. ولو أن هذا القائل تأمل نظام الزكاة الشرعية مليا وعرف سر التشريع فيها لكفى نفسه مؤونة هذا السؤال .

على أن ماتدعونه تنظيم الإحسان ليس فى نظر المنطق الاجتماعى السليم الا من كبرى الجرائم، ذلك لأن قصاراه إجراء الأرزاق على قوم سجناء فى الملاجئ ؛ فهو يحفظ عليهم حياتهم حقيقة

ولكنه مع ذلك معطل لمواهبهم محدّ لحوافزهم ، قد قتل فيهم روح الحركة الناشطة والدأب المحمود ، فهم لا يستطعون استجابة لدعوة المواهب ولا تلبية لنداء الحوافز .

أما مبدأ الزكاة فقد جعل الفقير حرا فيا يعطى له ، فقد يتخذه وسيلة للكسب ونواة للعمل فتتسع بالتدريج دائرة عمـله وتكثر موارد رزقه فيمسى معطاء للزكاة مفرجا عن المكروبين عونا للبؤساء والمعوزين، ويصبح مطلوبا بعد أن كان طالبا، والوقائع شاهدة بهذا مقررة له فكم غنى افتقر بعد غناه، وكم فقير ابتسمت له الحياة وصادفه القدر فأصبح ثريا كبيرا بفضل مواهب كانت تموت لو انفق عليه فى الملجأ .

وقد يقول بعض المفكرين إن الحكومات لو قامت بإنشاء المعامل والمصانع والملاجئ وما إليها ما رأيت بائسا ولا فقيرا ولا استغنى العالم كله عن نظام الزكاة .

وجوابنا عليه بواحد من أمور ثلاثة :

الأول — ماذا يصنع فى العواجز والعجائز وذوى العاهات والزمنى وأولئك لا يستطيعون العمل ؟

الثانى — أن الحكومات مهما أوتيت من القوى الفكرية والمـالية لا تستطيع أن تقوم بكل شىء فى سبيل أولئك، وهى أيضا لا تستطيع أن تمنع طوارئ الزمان فقد تحفها الأقدار بالفيالق والكتائب من هؤلاء وأولئك فتعجز عندئذ وهل هى ستعنى بهؤلاء وذلك يقتضيـها صرف الوقت والمـال فى شؤونهم أم تعنى بالشؤون العامة للدولة .

الثالث — وهو فى نظرى أبلغ من الأولين ذلك أن كل شعب يعتمـد على حكومته فى كل الشؤون لهو الشعب الذى لا يزال طفلا يحتاج الى إشراف أمه والالتجاء اليـها لأقل موجب وإن شعبا على هذا الوضع يجب أن يستبعد عند الحساب من عداد الشعوب الناهضة.
أما بعد فإن نظام الزكاة نظام محكم متين يرمى الى مقصد نبيل فذ دعا الفرد الى الاستقـلال الذاتى والعمل الفردى والتفكير الشخصى بحوافز من فطرته كما دعا الجماعة الى العمل الاجتماعى والتفكير الاشتراكى ليجعل للفرد ما للفرد وللجماعة ما للجماعة، وكفى بذلك دليلا على أن وضع السماء حكيم وأن أوضاع البشرية خلو من الحكمة ولا تعمر الا قليلا .

أرأيتم أيها السادة أن تشريع الزكاة نظام يقوى روح الكمال والاستقلال فى الشخص ثم كيف يبيد الأثرة ويحلى الإيثار مكانها ، ثم أرأيتم كيف أنه سبيل اليسر والرخاء بين جميع أفراد القافلة البشرية ، ثم أرأيتم أنه يحول بين الأنظمة وعوامل التخريب والتدمير .

فنظام الزكاة على النمط الذى حدده الإله الحكيم ضرورى لحياة الانسانية محتم لسير هذا العالم فى دائرة النظام القويم، فلا يستغنى عنه الناس ما داموا مختلفين فى المراتب قد فضل الله بعضهم على بعض فى الرزق اللهم الا اذا أراد الله أن يبدل المخلوقات ويغير هذا النظام بنظام

الحر يجعل ..س سوا. ق رزق لا تدحس بيهم. وهذا لن يكون، ولو كان لفسدت السموات والأرض بفقدان قانون التدافع والتشارع الذي أراده الله ولا راد لما أراد ، فإذن يجب أن يسود التشريع السماوي في الزكاة ، وأن يعمل به على وضعه الصحيح ليحيا الناس اخوانا متحابين ولتنتظم سير البشرية في احيده فيحل الوئام محل الحرب والخصام .

فالزكاة اذن أيها السادة هي الحصن الذي يأوى اليه كل من غالبته الأيام فغبنه وجاهدته الأحداث فجهدته ، فإذا ما آوى اليه المكروب المجهود وجد فيه أنس الطمأنينة وراحة القلب والعقل بعد ذلك العراك الجبار وهذا الصراع الرهيب فيستريح ثم يستجمع نشاطه إن كان فيه بقية من نشاط، ثم يعود الى مصارعة الأيام ومحاربة الأزمنت واقتناص أسباب الحياة بعد أن يكون قد هدأ من حرب الأيام فتره لم تنتنه فيها العرى والجوع ، ولم يهدم بناء أمله يأس أو قنوط ، ذلك لأنه وجد في شرعة الزكاة جنة تقيه شر ذلك كله . ثم رأى في قلب الانسانية الرحيم الذي عرف حكمة الزكاة فأداها بعد أن تأكد من أنها نفع متبادل يعمل وشائج الانسانية ويحل كلها ويرفه عن معدمها حين ملاذ يأوى اليه من غائلة الأيام وحدتها وثورة الأحداث وشدتها .

فله ما أنفع هذا العلاج الذي يجعل سلسلة الآمال في الإنسان متصلة الحلقات مطردة السير، ويحول بين الانسان وبين الهلاك بعوامل اليأس أو القنوط. والانسان كثيرا ما يجد السلوى في الأماني والآمال .

ومبدأ كهذا له كبير الأثر في سعادة البشرية وطمأنينتها، وهو السبيل المعبد لسير القافلة البشرية في طريقها الى النهاية متساندة الركب آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان، أقول إن مبدأ كهذا أيها السادة يجب الايمان به والعمل في سرعة على إقامة بنيانه، كما يجب أن تفرح الانسانية بذلك التشريع الذي حفظ نظام الاجتماع من التداعى والانحلال وكان سببا في الإبقاء على بنائها وصيانتها من الانهيار .

وبذلك تبين أنها ضرورية للمجتمع الانساني كله، لأن الغني في حاجة اليها كالفقير بل أشد لا كما يفهم البعض من أن الزكاة مجرد إحسان من الأغنياء وتبرع باليسير من المال للفقراء لا بل هي ميدان تتبارى فيه العواطف ، ومضمار تتسابق فيه النفوس والمشاعر، من أحرز فيه قصب الرهان فهو الفرد الكامل الذي نضجت بشريته فتحققت إنسانيته، ومن قترت فيه همته وقعدت به جبلته فليس للإنسانية بسبيل .

ولو أن الناس أقاموا الزكاة ما رأوا خطرا ولا دهمتهم تلك المفزعات ، ولا فاجأتهم تلك المروعات ، ولا حاطبتهم تلك المدافع بألفاظ من قذائفها ولا أمطرتهم سحب الطائرات بوابل من غيثها المنهمك الرهيب .

فما كانت تلك الأرزاء التى تحيق بالانسانية الا أثرا مباشرا لتذمر بعض الانسانية من البعض ، ذلك التذمر الذى بعثه من مرقده إمساك البعض الأول عن البعض الثانى الذى قام يطلب سبب حياته ،وهو لن يصل اليه باللين فوصل اليه بالعسف والجبروت ،فما كانت أيها السادة تلك الثورات المدمرة والاشتراكيات الثائرة على اختلاف أنواعها إلا بسبب انعدام مبدأ الزكاة والضلال فى طريق طلبه ، فكانت ثورات وكانت اشتراكيات مدمرات لم تستقر ولم تهدأ حتى امتشق الحسام فهدمت صوامع و بيع وخربت بيوت وشردت ملوك .

ولو أنهم أيها السادة اذ أرادوا تحقيق مبدأ الاشتراكية المنظمة لجأوا الى تشريع السماء فى الزكاة لتغيرت وجهة التاريخ ، ولرأيت الأمن سائدا والطمأنينة شاملة والناس فى رغد من الحياة رغيد ، ولكنهم ضلوا السبيل فعموا عن الحق و باءوا بالهلاك المبين .

أليس الفقير أيها السادة فى حاجة الى حفظ حياته يعمل لها بكل ما أوتى من قوة فاذا لم يجد ما يحفظ حياته فإلى أين يلجأ؟ لا جرم أنه مرغما سيتخذ طريقه فى طلب الإبقاء على نفسه مهما كلفه ذلك من تضحيات ، فتراه قد استحال من انسان وديع هادئ قانع خاضع للنظم الى وحش ضار وحيوان مفترس يدمر كل ما يعترضه فى طريقه الى الحياة ثم تراه قد ثار على النواميس القائمة ثورة عاتية لا تحمد مغبتها ، فيعتدى على مال الأغنياء طالبا القوت فإن منعه حارب المانعين حربا لاهوادة فيها فإما أن يتم له النصر والغلبة ، و إذ ذاك تسود الفوضى وتعم البلاد ، و إما أن يخر صريعا فى ميدان المطالبة بالقوت بعد جلاد ونضال ، وحينئذ تفقد البشرية بعض أفرادها و يأخذ بناء الانسانية فى التدهور والتداعى ، ثم لا يجد الغنى بعد ذلك من يساعده على استثمار أمواله وتنميتها ، ومعنى هذا أن يقف دولاب العمل و يختل الناموس البشرى العام وفى هذا وذاك كل الويل والأخطار على أولاد حواء .

و بما ذكر تجلى أيها السادة عاقبة منع الزكاة ، فماذا على الناس لو أقاموا هذا الحصن ليكون ملاذا للناس ؟

. مصطفى الصاوى